مجلة الآداب واللغات- العدد 14 نوفمبر 2008

الثنائيات الضدية في قصيدة "نهج البردة "

بغداد عبد الرحمن . جامعة تلمسان

ملخص

إن ظاهرة الثنائيات هي واحدة من أهم الظواهر الفكرية التي يمكن معاينتها في كامل التجربة الشعرية الغنية و الطويلة لأي شاعر من شعراء اللغة العربية , و لقد وقع اختيارنا على الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي باعتبار أن الشاعر بارع في جمع المتناقضات التي تحفل بها الحياة، ولشدة ولعه بالثنائيات أو الجمع بين النقيضين ، فإننا يمكننا أن نقرأ في البيت الشعري الواحد ثنائية واحدة أو أكثر،كما يمكن أن نقرأ عدة ثنائيات في قصيدة واحدة , هذا ما سعينا إلى تسليط الضوء عليه من خلال قصيدته المعروفة بـ : " نهج البردة ".

نص المقال

تعد ظاهرة التحول التقابلي أو الثنائيات واحدة من أهم الظواهر الفنية التي يمكن رصدها في أي تجربة شعرية , و تعمل هذه المتضادات على متابعة النصّ و ما يتشكّل عنه من علاقات داخلية تتحرَّك في تواتر متجاذب وكأنّها شبكة تَتَتَابَعُ خيوطها و تتشابك تطريزاتها داخل النصّ . غير أنَّ هذه الأضداد لا تتحدَّد فقط بين مفردة و أخرى أو بين جملة و مقطع شعريّ أو بين جملة وسياق القصيدة بكامله ، و إنما يتّسع و يمتدّ مداها إلى أبعد من ذلك تتضافر فيها الأضداد مع الفعل و السؤال و الإيقاع الشعريّ، البنية الحركية للنصّ . و من بين الباحثين الذين أكدوا على أهمية الثنائيات الضدية في دراسة المعنى الباحث " جريمس " الذي صنف التقابلات إلى عدة أنواع :

- تقابلات محورية لا تقبل وسطا – زوج / زوجة.
- تقابلات مراتبية –كبير / وسط / صغير .
- تقابلات متناقضة – متزوج / أعزب .
- تقابلات متضادة – صعد / نزل .
- تقابلات تبادلية – اشترى / باع " [1].

و قد أكد " محمد مفتاح " أيضا على أهمية تميز التقابل البنائي أو التضاد في الكشف عن العلاقات

الداخلية للنص و تصعيد حركاته فقال :" إننا حينما نكتب كلمة , أو ننطقها أو نقرأها نتوقع أن تتلوها كلمات أخرى مثل: ليل/ نهار , مما يكون متتالية كلامية تحتوي على لفظين أو ألفاظ متقابلة " [2].

و يعد أحمد شوقي من الشعراء الذين برعوا في جمع المتناقضات أو الثنائيات في قصائده , حيث لا نكاد نقرأ بيتا شعريا واحدا إلا و نعثر فيه على ثنائية واحدة أو أكثر , كما يمكن أن نقرأ عدة ثنائيات في القصيدة الواحة . و إنَّ استخدام أحمد شوقي لهذه الثنائيات لم يأت بشكل اعتباطي بل بطريقة دقيقة و منظمة و حيث لوحظ لتلك الظاهرة الفنية وظائف دلالية و جمالية عديدة تعامل معها الشاعر بوعي و رؤية معمقة و حساسية مرهفة .

ولعل من أهم تلك الوظائف : معرفة نقيض الشيء , و ذلك لأن النقيض يوفر لنا إمكانية المقارنة بين الشيء ونقيضه,وتساعدنا على الاستنتاج وبناء تصور معرفي عن الأشياء ومعرفة الإيجابي منها والسلبي.

إنطلاقاً من هذه الطروحات النظرية , سنسعى في هذا المقال إلى دراسة ظاهرة الثنائيات الضدية في قصيدة " نهج البردة " التي تُثْبِتُ بوضوح مدى تمكن أحمد شوقي من فكرة التقابلات الثنائية المتعارضة . و لكن قبل الشروع في هذه العملية لا بأس من رصد أهم الدلالات والمعاني التي تضمنتها القصيدة و منها:

1- مدح الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم و الإعجاب به و الافتخار بالشريعةالإسلامية و برجالاتها .

2- وصف لحالة الشاعر الفردية و النفسية المشوبة بالحزن و الخوف من الوقوع في المعصية .

3- ابتهاله إلى الله تعالى و الخضوع لقدرته و رجاء عفوه .

4- قدرته الشعرية الفائقة على المحاكاة و المشابهة لبردة " البوصيري " .

و يشكل التقابل / التضاد في " نهج البردة " محوراً أساسياً عبر ثنائيات تتشابك فيها أنساق غزيرة الإيماء و التلويح على امتداد النصّ , على أنَّ التضاد في هذه القصيدة لا يتحدد فقط بين الكلمة و الكلمة , و إنما يتَّسِعُ و يمتدُّ إلى أبعد من ذلك بحركة تتضافر فيها الأضداد مع الجملة و الفعل و اسم الفاعل و المصدر و الجار و المجرور و أحرف الجواب و غيرها.و قد ساعدتنا عملية إحصاء

السياقات الضدية الموجودة في النص الشعري على تأسيس فكْرةٍ مفادُها أنَّ شوقي وُفِّقَ إلى حدٍّ كبيرٍ في استثمار هذه الثنائيات في إبداع صوره الشعرية التي ابتعدتْ عن كونها زُخْرُفاً لفظياً , بل صارتْ في أكثر الأحيان نسيجاً تقابلياً فيه الصورة و المعنى .

و من الثنائيات الهامة في تجربة شوقي الشعرية لهذه القصيدة ثنائية "الحزن/ الفرح", و الشاعر يعبر عن هذه الثنائية تارة بشكل مباشر و واضح ، وأخرى عن طريق استخدام مرادفات أو صفات و حالات تدل عليها . يقول شوقي :

187 ⇦ سَعْدٌ وَ نَحْسٌ وَ مُلْكٌ أَنْتَ مَالِكُهُ ⁂ تُدِيلُ مِنْ نِعَمٍ فِيهِ وَ مِنْ نِقَمِ[3].

تتجسد الثنائية هنا في إيرادِهِ لمفرديَّ "سَعْد"و"نِعَم" بشكل مباشر ،ثم مفرديَّ "نَحْسٍ"و"نِقَم" ، وهي المرادفة لكلمة "الحزن", حيث يخاطب الشاعر الخالق سبحانه و تعالى : " أَنْتَ " باعتباره المرجعية و المنقذ و معقد الأمل، كما يعبر في الوقت نفسه عن حقيق الإيمان بالقدر التي تجعل من الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء, لا تُبْطِرُهُ النعمة,و لا تُيْئِسُهُ المصيبة: [وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَ يَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ][4] .

و في بيت آخر , يعبر الشاعر عن الثنائية ذاتها " الحزن / الفرح " بشكل واضح و صريح فيقول :

31 ⇦ طَوْراً تَمُدُّكَ فِي نُعْمَى وَ عَافِيَةٍ ⁂ وَ تَارَةً فِي قَرَارِ البُؤْسِ وَ الوَصَمِ[5]

قد تجسدت الثنائية في قوله " نعمى " و " البؤس " ، و من خلال هذه الثنائية يصل الشاعر إلى حالة من الصراع النفسي مفاده أن الإنسان يقف في حياته بين حالتيْن أساسيتيْن هما : الأولى , طمأنينة و أمل والثانية قلق و عدم الاستقرار . هذا التوتر الوجودي الحاد في العيش الإنساني , هو الذي يُوَلِّدُ ذلك التقابل الدلالي في النص الشعري و يجعل الصراع فيه يحتد ليواكب الصراع النفسي الذي يعتمل في دواخل الشاعر .

و يعبر في بيت آخر عن الثنائية نفسها لكن في هذه المرة بشكل غير مباشر , أيْ عن طريق استخدام مفردات تدل على حالتَيْ الحزن و الفرح ، فقال :

25 ⇦ يَا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ ⁂ وَ إِنْ بَدَا لَكِ مِنْهَا حُسْنُ مُبْتَسَمِ[6]

فمفردة "مبكية " تدل على حالة من الحزن , أما مفردة " مبتسم " فتدل على حالة الفرح . و هكذا أراد الشاعر أن يقول لنا إن الحياة متقلبة الأحوال، فتارة تبعث فينا الفرح و الأمل و التفاؤل، و أخرى

الحزن و اليأس و التشاؤم، ولنا في التراث العربي ما يعبر عن حكمة الحياة المبنية على النقيضين : الفرح و الحزن, يقول أبو البقاء الرندي حول هذه الفكرة :

هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُوَلٌ ⁂ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ [7]

و يقول ابن عبد ربّه الأندلسي :

أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا نَضَارَةُ أَيْكَةٍ ⁂ إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ [8]

و نقرأ في القصيدة نفسها استخدام الشاعر لأسلوب التقابل بين الكلمات , و التراسل بين التراكيب في قالب تقابلي تكاملي بشكل غير مباشر. و ذلك حين يقابل بين الخير و الشر دون أنْ يُرجِّحَ أحدهما على الآخر :

37 ⇦ وَ النَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ ⁂ وَ النَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ[9]

فمفردة "خيرها" تدل على الفرح ، و مفردة "شرها" تدل على الحزن، فالشاعر يتساءل هنا عن إمكانية الفرح في عالم مليء بالحزن و الآلام ؟ أو كيف يستطيع المرء العيشَ بين حالتين اثنتين : فرحه و سروره في الدنيا ثم مقامه في عالم الحزن و الأسى ؟ و هي أسئلةٌ تعبر عن بنيةٍ نفسيةٍ قلقةٍ ، و ذَاتٍ مُنْقَسِمَةٍ على نفسها في هَوَاها و في تطلعاتها ، إلاَّ أنه في خاتمة القصيدة يفتح لنا فجوةً للأمل و التفاؤل ، و هي خاتمة تعبر عن إصرار الشاعر و قدرته في مواصلةِ حُبِّ الحياة و بث روح التجدد في مفاصلها رغم صورة الظلام التي تُخيِّمُ على الوجود حين يقول :

182 ⇦ بيضُ الوُجوهِ وَ وَجهُ الدَهرِ ذو حَلَكٍ ⁂ شُمُّ الأُنوفِ وَ أَنفُ الحادِثاتِ حَمي[10]

كما فتح شوقي بابَ التقابل من خلال ثنائيات ضدية , كشفتْ لنا عن مدى التوتر الذي عاشه و موقفه المتناقض من الحياة مما أفْضَى إلى تأسيس علاقة بين : " قوَّةٍ فاعلةٍ و ذات مُنْفَعِلَةٍ " [11].

و من بين تلك الأمثلة نذكر ما يلي :

- الحلال و الحرام :

1 ⇦ ريمٌ عَلَى القَاعِ بَيْنَ البَانِ وَ العَلَمِ ⁂ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ[12]

رغم أن الشاعر مهد لهذا البيت في دلالته بالحديث عن الريم و هو الظبي الخالص البياض , الذي هو رمز العفة و البراءة و النقاء و الطُهر , إلا أنه أخبرنا " الريم" بصيغة المفرد بدون رفاق , و

ذلك حتى يستدرّ عطفنا عليها و يثير في نفوسنا نوعا من الفضول. ثم سرعان ما ذهب إلى الشطر الثاني و بدأه بمقابلة اللون الأحمر(الدم) باللون الأبيض(الريم) , و إذا كان اللون الأبيض جامداً، فإن اللون الأحمر المسفوك المراق بدا وكأنه منحور أي حركي , كلُّ ذلك جرى في الأشهر الحرم . و هذه الصورة (سفح الدم المحرّم) هي التي كشفت لنا عن أزمة الشاعر و تمزّقه الوجدانيّ وعدم توافقه مع عالمه و واقعه .

- البخل و الكرم :

9 ⇦ أَفْدِيكَ إِلْفاً وَ لاَ آلُو الخَيَالَ فِدىً ⁂ أَغْرَاكَ بِالبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالكَرَمِ[13]

يقيم شوقي بناء هذا البيت الشعري على مفارقة تصويرية كبيرة , قائمة على التضاد و التوازي في آن واحد صياغة و دلالة , حيث حصر هذا التقابل بين عنصرين اثنين هما : البخل و الكرم و ما تحمله الكلمتين من معاني المادية , إذ به يذكرنا بما عرف به العرب من صفة الكرم التي توحي لنا في الغالب بالسيادة و القيادة و الإمارة, في حين البخل يوجب الذم و إحباط صورة الشخص في نظر الناس , و لعل هذا الطرح لهاتين الثنائيتين المتضادتين إيجابياً و سلباً عكست فعلاً واقع الشاعر المرير و مدى الصراع الدائر بين أهله .

- السواد و البياض :

33 ⇦ يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا ⁂ مُسَوَّدَةُ الصُّحُفِ فِي مُبيَضَّةِ اللَمَمِ[14]

ثم يتبع أحمد شوقي هذه المتناقضات بمجموعة أخرى من المتناقضات الجزئية التي عمقت من ملامح نفسية الشاعر و أبرزتها , كالمفارقة بين الأبيض و الأسود التي يمكن إدراجها ضمن الحقول الدلالية التي تشير إلى عالم الذات و ما تسكنه من متخيلات و تداعيات , حيث ظل شوقي يعيش متأرجحا بين القمة و القاع , فبقدر ما كانت تحمل نفسه من خير و تفاؤل , إلا أن تلك اللحظات البيضاء كثيرا ما كان يشوبها سواد

الواقع , فتختلط عليه الأمور , و يعيش متأرجحا بين الفكرة و نقيضها .

و أخيراً , يتضافر التضاد مع التوازي تضافراً قوياً و مؤثراً في تشكيل القيم الصوتية و الإيقاعية في قصيدته " نهج البردة "، من خلال تأكيد الشاعر على بعض القيم الجوهرية في الشريعة الإسلامية التي اتكأ عليها في رسم مشاعره و أفكاره و تصوير نفثات وجدانه و زفراته ، و من هذه القيم :

- الدين و الدنيا :

91 ⇦ خَطَطتَ لِلدينِ وَ الدُنيا عُلومَهُما ⁂ يا قارِئَ اللَوحِ بَل يا لامِسَ القَلَمِ[15]

- الحق و الباطل :

97 ⇦ فَأَدبَروا وَ وُجوهُ الأَرضِ تَلعَنُهُم ⁂ كَباطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنهَزِمِ[16]

- العلم و الجهل :

129 ⇦ عَلَّمْتَهُم كُلَّ شَيءٍ يَجهَلونَ بِهِ ⁂ حَتّى القِتالَ وَ ما فيهِ مِنَ الذِمَمِ[17]

- الحرب و السلم :

168 ⇦ الزاجِرُ العَذبُ في عِلمٍ وَ في أَدَبٍ ⁂ وَ الناصِرُ النَدْبِ في حَربٍ وَ في سَلَمِ[18]

من خلال هذه الثنائيات كلها , يتبين لنا أنَّ شوقي أقام بناء قصيدته " نهج البردة " على المفارقة القائمة على التضاد و التوازي في الصياغة و الدلالة , طرفها الأول : معاتبة النفس و حثها على هجْر ملذات الحياة بكل ما ترمز إليه من معاني المادية, و المعاصي, و البكاء , و الحزن , الجرح , و الموت , و طرفها الثاني حبّ الرسول صلى الله عليه و سلم بكل ما يرمز إليه من معاني المدح ,والعظمة , و الاستغاثة, و الشوق , و الرحمة , و الأمان . و بالإضافة إلى هذه المفارقة الكبرى التي قام عليها بناء القصيدة , فقد دعَّمَها شوقي بمجموعة من المفارقات الجزئية التي تفاعلت بينها و جعلت من بناء القصيدة ينمو و يتطور و تتوالد صوره و رموزه . و من هنا يمكن القول : " إنّ قيمة التضاد الأسلوبية تكمن في نظام العلاقات ، الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين و على هذا فلن يكون له أيّ تأثير ما لم يَتَدَاعَ في توالٍ لغويٍّ ، و بعبارة أخرى : فإنّ عمليات التضاد الأسلوبية تَخْلقُ بنيةً ، مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة "[19].

و في الأخير , يمكننا القول بأنَّ أحمد شوقي لم يستخدم هذه الثنائيات في قصائده بشكل مجاني، بل بشكل دقيق و محسوب ، أي بمعنى أنَّ هذه الظاهرة قد اتخذت عنده وظائف دلالية وجمالية عديدة تعامل معها الشاعر بوعي عالٍ ، و برؤية معمقة و حساسية مرهفة ، و لعل من أهم هذه الوظائف :

1- تعميق البنية الدرامية للنص الشعري من خلال إثارة وهج الصراع النفسي الذي عاشه أحمد

شوقي بين الخوف والرجاء وجسدته بدقة في هذه القصيدة المدحية من خلال طرح أشكال من المتناقضات.

2- إنَّ حركية هذا الصراع النفسي الظاهر في الثنائيات المتضادة عمق من البنية الفكرية لهذا

النص الشعري حيث جسده ذلك التفاعل الفكري الذي نضج بقوة خلال بداية النهضة العربية و حتى مرحلتنا الراهنة في تشتت المفكرين و قادة الإصلاح الاجتماعي حول طبيعة النهضة و صورة المستقبل .

3- أما الوظيفة الجمالية فتجسدت في إثارة الدهشة والمفارقة المتولدة من اجتماع النقيضين في

البيت الشعري الواحد ، وكذلك في القصيدة كلها ، أي كما يتعايش النقيضان في الحياة ، يتعايشان ويتصارعان في القصيدة الواحدة . و لامسنا ذلك نتيجة انقسام الشاعر تارة بين بعث إسلامي في قصائده,و مرة في الأخذ بأسباب الحضارة الغربية كاملة في شطريها المادي و الأدبي .

وهناك أيضاً وظيفة معرفية عامة قائمة على أساس أننا لا نعرف الشيء بدقة وعمق ، إلاَّ منخلال معرفة نقيضهِ ، و النقيض في هذه الثنائيات — كما وقفنا عنده – وفر لنا إمكانية المقارنة بين الشيء و نقيضهِ ، أي بين الإسلام و معالمه الحضارية و قيمه النبيلة و بين الغرب و ما له و ما عليه , و إن هذه المقارنة ساعدتنا على الاستنتاج و بناء تصور معرفي عن كلا الأمتين و معرفة الإيجابي والسلبي من خلال عملية المقارنة بينهما .

4- وأخيراً يمكن القول بأن استخدام الثنائية عند أحمد شوقي ساعدنا على ابتكار ثنائية أخرى

جديدة و عميقة تمثلت في نظرة الإنسان لكل من الدنيا و الآخرة و تصوره لما هو أبقى منهما .

الإحالات

1. محمد مفتاح , تحليل الخطاب الشعري : استراتيجيه التناص – دار التنوير للطباعة و النشر– بيروت – ط 1 – 1985 – ص 239 .
2. ينظر : المرجع نفسه – ص 61 .
3. أحمد شوقي , الشوقيات – دار الكتب العلمية – بيروت – ط 1 – ج 1 – 1990 – ص 208.
4. القرآن الكريم برواية حفص – سورة آل عمران : الآية 140 .
5. الشوقيات – ج 1 – ص 193.
6. المصدر نفسه – ج 1 – ص 193.
7. محمد رضوان الداية , أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس – عالم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع – ب ط– 1986 – ص 45 .
8. ابن عبد ربه الأندلسي , الديوان – تحقيق : محمد التونجي– دار الكتاب العربي – بيروت – ط 1 – 1993 – ص 99 .
9. الشوقيات – ج 1 – ص 194.
10. الشوقيات – ج 1 – ص 207.
11. شوقي و الذاكرة الشعرية : دراسة في بنية النص الإحيائي , أبو ديب كمال – مجلة فصول – ج 1 – مج 3 – ع 1 – 1982 – ص 99 .
12. الشوقيات – ج 1 – ص 190.
13. المصدر نفسه – ج 1 – ص 191.
14. المصدر نفسه – ج 1 – ص 193.
15. المصدر نفسه – ج 1 – ص 198.
16. المصدر نفسه – ج 1 – ص 199.
17. المصدر نفسه - ج 1 – ص 202.
18. المصدر نفسه – ج 1 – ص 206.
19. صلاح فضل , علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته –كتاب النادي الأدبي – جدّة – 1988 – ص 256 .